اخترنا لك .

محيي الدين النووى الصوفى
والسلطان بيبرس

للدكتور عبد الوهاب عزام

كان شيخ الإسلام أبو زكريا يحيى النووى من أعلام العلماء فى القرن السابع الهجرى ، ذا مكانة عالية بين علماء الفقه والحديث ، وكان له فى التقوى والورع والزهد سيرة محمودة ، وفى نصرة الحق وتأييده مواقف مشهودة . ولا بأس أن نثبت هنا بعض سجعات ابن السبكى : « كان يحيى رحمه الله سيدا وحصورا ، وليناً على نفسه هصورا ، وزاهدا لم يبال بخراب الدنيا إذا صير ربع دينه معمورا ، له الزهد والقناعة ، ومتابعة السالفين من أهل السنة والجماعة ، والمصابرة على أنواع الخير ، لا يصرف ساعة فى غير طاعة . هذا مع التفنن فى أصناف العلوم : متون أحاديث ، وأسماء رجال ، ولغة وصرفا إلى غير ذلك » .

ولست أبغى هنا ترجمة النووى ، ولكن أذكر واقعة كانت بينه وبين الظاهر بيبرس ، وهى واحدة لها أمثال فى سيرة الشيخ ، ولها نظائر كثيرة فى تاريخ الإسلام :

كان بيبرس ملكا مجاهدا ، أبلى فى قتال التتار والصليبيين بلاء عظيما ، وقد تظافرت شجاعته وعزيمته مع شجاعة أسلافه وأخلافه من الأيوبيين والمماليك ، فكانت مرآ من الجهاد والجلاد وقى البلاد المصرية مصائب الغزاة وخيب دونها آمال الصليبيين مائتى سنة . وكذلك كانت همته وإقدامه هو وجنوده فى مصر والشام كالطود ، ارتد عنه سيل القتال بعد أن جرف البلاد الإسلامية ، من سمرقند وخوارزم إلى حلب ودمشق ؛ فعلموا جنود هلاكو فى « موقعة عين جالوت » وما بعدها ؛ أن مصر أبعد من أن يطمعوا فيها ، وأن الشام أعز من أن يسيطروا عليه .

وكان بيبرس فى جهاده المستمر ، وحربه المتمادية ، يتوسل إلى المال يستعين به على جهاده ، وكان الشيخ النووى يكتب إليه ناصحا كما رأى فى عمل السلطان شدة ،

أو جورا ، أو مخالفة للشرع ، لا يني في هذا ولا يداهن ، ولا تأخذه رغبة ولا رهبة .

كتب مرة إلى السلطان هو وبعض العلماء . يطلبون رفع بعض المكوس ، ويوصون بالعدل والشفقة ، فكان في الجواب إنكار وتوبيخ وتهديد ، فكتب الشيخ النووي يجادل فيما تضمنه جواب السلطان ، ويقول :

« وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا وتهديد طائفة العلماء ، فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه . وأي حيلة لضعفاء المسلمين في الناصحين نصيحة للسلطان ولهم ولا علم لهم به ؟ وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام عليه ؟ وأما أنا في نفسي فلا يضرني التهديد ولا أكثر منه ، ولا يمنعني ذلك نصيحة السلطان فإني أعتقد أن هذا واجب علي وعلى غيري . وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى : إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار » . « وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد » . وقد أمرنا الرسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقول الحق حيثما كنا ، وألا نخاف في الله لومة لائم .

ولما ذهب السلطان إلى الشام لمحاربة التتار أراد أن يأخذ مالا من الرعية يستظهر به على العدو ، واستفتى العلماء فأفتوه . ثم سأل عن الشيخ النووي أن يشارك العلماء في الفتوى ، فلما حضر الشيخ قال السلطان : أكتب خطك مع الفقهاء . فامتنع . قال السلطان : لماذا لا تكتب ؟ قال الشيخ .

« وأنا أعرف أنك كنت في الرق للأمير بندقدار ، وليس لك مال ، ثم من الله عليك وجعلك ملكا ، وسمعت أن عندك ألف مملوك ، كل مملوك له حياصة من ذهب ، وعندك مائتا جارية ، لكل جارية حُقٌّ من المحلىٍّ ، فإذا انفقت ذلك كله وبقيت مماليكك بالبنود الصوف بدلا من الحوائص ، وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلي ، أفتيمك يأخذ المال من الرعية » .

قال الظاهر للشيخ : اخرج من بلدي ، يعني دمشق .

قال الشيخ : السمع والطاعة . وخرج إلى نوى .

فأنكر الفقهاء أن يخرج مثل النووي من المدينة ، وسألوا السلطان أن يرجعه . فأمر السلطان بإرجاعه . فأبى الشيخ وقال : لا أدخلها والظاهر بها .

لست أدرى أكان السلطان محقا فى فرض مافرض من المال أم لا ولست لذلك أعرف أكان الشيخ محقا فى جبه السلطان بما جبهه به ؛ ولكن لاريب عندى أن السلطان أحسن حين التمس فتوى العلماء قبل أن يجمع المال ، وأن الشيخ أدى واجبه حين صارح السلطان بما يعتقد ، ولم يأخذه فى الحق خوف ولا طمع . وأن محيى الدين النووى قد فقه أحسن الفقه ما على العلماء من النصيحة لأولى الأمر . والجهر بالحق فى غير مداهنة ولا خوف .

رحم الله النووى ؛ لقد كان من علماء المسلمين . ولله تاريخ المسلمين ! كم فيه من أمثال محيى الدين ؟

قاموس التصوف

(٣)

اللفظ	المعنى
١ — عالم الأمر	يطلق بإزاء عالم الملكوت ، وهو ما وجد عن الحق بغير سبب .
٢ — عالم الخلق	فى مقابل عالم الأمر ، ويطلق بإزاء عالم الشهادة ، وهو ما وجد عن السبب .
٣ — الغيب	كل ماستره الحق منك لامنه .
٤ — الإشارة	تكون مع القرب ومع حضور الغيب .
٥ — الرداء	الظهور بصفات الحق .
٦ — الفضل	فوق ماترجوه من محبوبك .
٧ — الإسم	الحاكم على حال العبد فى الوقت من الأسماء الإلهية .
٨ — الوقفة	حبس بين المقامين .
٩ — السر	كل مايسترك عما يغنيك .
١٠ — الزاجر	هو واعظ الحق فى قلب المؤمن .
١١ — الرؤية	المشاهدة بالبصر لا بالبصيرة .
١٢ — المحاضرة	حضور القلب بتوارد البرهان ، ومجاراة الأسماء الإلهية بما هى عليه من الحقائق .

اللفظ	المعنى
١٣ — اللوائح	مايلوح من الأسرار الظاهرة من السمو من حال إلى حال .
١٤ — الطوالع	أنوار التوحيد تطلع على قلوب أهل المعرفة فتطمس سائر الأنوار .
١٥ — لوامع	مايثبت من أنوار التجلى .
١٦ — البواده	مأيفجأ القلب من الغيب على سبيل الوهلة .
١٧ — الفتوح	فتوح العبادة فى الظاهر ، وفتوح المكاشفة فى الباطن .
١٨ — الهمة	تطلق بإزاء تجريد القلب للمنى ، وجمع الهمم لصفاء الإلهام .
١٩ — الهجوم	مايرد على القلب بقوة الوقت بغير تصنع .
٢٠ — المريد	هو المتجرد عن إرادته ، وقال أبو حامد هو الذى فتح له باب الأسماء ودخل فى جملة المتوصلين إلى الله بالإسم .
٢١ — المراد	هو المجذوب عن إرادته مع تهىء الأمور له ، فجاوز الرسوم كلها والمقامات من غير مكابدة .
٢٢ — التكليف	إلزام الكلفة على المخاطب .
٢٣ — التصريف	تحويل الأصل الواحد إلى مثلة مختلفة لمعان مقصودة لا تحصل إلا بها .
٢٤ — الشطح	عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى ، وهو من زلات المحققين ، فإنه دعوى بحق يفصح بها المعارف من غير إذن إلهى بطريق يشعر بالنباهة .
٢٥ — الكرسى	موضع الأمر والنهى .
٢٦ — العرش	مستوى الأسماء المقيدة .